التشاؤم الاجتماعي في شعر السياب

بقلم المستشرق اليوغسلافي راديج بوجوفيتش

كانت الظروف السياسية تؤثر تأثيرا هاما على نفسية بدر شاكر السياب الذي انضم ـ كطالب ـ بحماس الى الحياة السياسية الثائرة في العراق . وكان على الشاعر واجب ، خاصة في فترة ما قبل ثورة يوليو ، التي من خلالها اشترك المثقفون العراقيون في نشر افكار اشتراكية محددة وخاصة عندما اصروا على تطبيق الاصلاح الزراعي وازالة سلطة الشيوخ الاقطاعيين الكبيرة وغير المحدودة . ان العراق ـ البلد المتعدد الاقوام والاديان ـ كان متأخرا وهذا مكن من تأثير الاحزاب المختلفة والتيارات السياسية اليسارية واليمينية ، ويمكننا القول ان الارض ذات الثروة النفطية الكبيرة كانت تعيش في بؤس وشقاء ، ولذا ليس من الغريب ان يذكر الشاعر السياب الجوع والجائعين كثيرا في شعره . ولهذا كله كان يوافق ذلك الزمان الكئيب الشعر الالتزامي والشعر الاجتماعي فقط .

غير ان الشاعر اضفى على شعره الاجتماعي بعضا من روحه المترددة المتشائمة ، مسجلا كل ما احاط به بشيء من التسليم بالواقع وكذلك الاستسلام امام حقائق الحياة القاسية . وقصيدة « حفار القبور » (١٩٥٢) من افضل الادلة على موقف الشاعر هذا . اذ انها تعطينا صورة حقيقية عن السياب ، الانسان الحائر والشاعر الذي فقد افكاره المحددة . في هذه القصيدة وصف الشاعر الحفار بالوان فيها شيء مما يقترب من الفكاهة القاتمة (humor noir) : الانسان الذي يدفن اموانا كثيرين يعود الى منزله في المساء متعبا وجوعان حاقدا عليهم . وفي حواره الصامت مع ما يحيط به يحاول الحفار ان يجد جوابا على اسئلة متعددة تثور في نفسه . ولكن كونه ووجوده لغزان كبيران لان « الف انثى تحت اقدامي تنام » [1] بينما جوع القبور ونفسه لا يشبعان . ولا يبقى للحفار على مر الايام المتشابهة الا عويل الريح بين القبور ونعيب البومة ، ويبقى له فقط ما بقي لحفار مثله في احدى القصص للمؤلف اليوغوسلافي « جوري ياكشيج » ـ ان يضرب على الحياة ختم الحقيقة مستعملا عبارة :« عاش ومات » . في حين تنخر الحفار الوحدة كما ينخر الارض فأر الحقول :

... وما ازال مستوحدا ارعى القبور وانفض الدرب البعيد.
وكان .. يا بشري . كان هناك في اقصى الجنوب
خطا كأذيال الظلام ولمعة كدم الغروب . (٢)

١ ـ قصيدة « حفار القبور » من ديوان « انشودة المطر » ، دار مجلة شعر ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٢٣٥ .
٢ ـ نفس القصيدة ، ص ٢٣٩ .

وفي هذه الصور نرى هم السياب تجاه الناس وقدرهم ، نرى افكارا تشبه حياة الشاعر . لان الحفار يترك القبور حالما يلقاء الاحياء والخمر ، وكل خياله هذا بلا اية نتيجة . فكما يقول الشاعر « السبيل كفم القبر » وبدون تلألؤ النجوم ولمعان النوافذ نحس جميعا كأننا هناك اسفل ، في ظلام قلب الارض . ومن المثير ان الانسان الذي يحفر قبورا متعددة ويدفن عددا كبيرا من الناس يحمل بعد في نفسه طيف خاطر عن سعادة الانسان ، ولكنه في الوقت ذاته يشعر بان الزمان لا يستطيع ان يجلب اليه شيئا جديدا لانه لا يحدث حوله شيء :

يا رب .. اسبوع طويل مر كالعام الطويل ... (٣)

وفي هذه القصيدة نلتقي بموقف السياب حيال المدينة ، وموقفه هذا يشابه مشابهة واضحة موقف الرومانسيين الاوروبيين . بينما لا نشك في ان هذا الموقف ليس نتيجة لتأثير الرومانسية الانجليزية المناسب فقط ، كما يريد البعض ، انما هو على كل حال نتيجة تغيير كيفية الحياة البدوية وازالة القيم الاخلاقية المتينة والناشئة من ظروف الحياة الخاصة . لقد جاء التمدن السريع بتغييرات مناسبة في حياة العراقيين واتاح الفرصة لان تبرز بدرجة اكثر من قبل الخلافات بين الناس وبين الطبقات ، وان تعمق الهاوية بين الاغنياء والفقراء ، بين المدينة والقرية . ومن كل هذا تنبع غربة الحفار عن العالم ولكن سنتحدث حول هذا المضمون فيما بعد . وفي هذه المرحلة نرى ان السياب عبر شخصية الحفار يريد اقترابه من الناس وانه يصارع بعد بين الوحدة والمجتمع . وهذا الصراع يتمثل في دور الحفار التي يشاهد دائما صورا مثل هذه :

فيرى القبور ،
ويرى المصابيح البعيدة كالمجامر في اتقاد ،
ويرى الطريق الى القبور ... (٤)

واحيانا بسرعة يظهر من هذه الصور الكئيبة والافكار السوداء ـ كالفريق ـ الفكرة المتمردة التي تعد ثورة الموتى ، والتي بعد ذلك تنحدر الى قلب الابيات والاشعار التي تشبه الفلم السريالي . وهكذا ينتهي الحفار من الدفن ولكن يمكن ان يبرز السؤال : هل دفن الانسان؟

نتوهم ان السياب يبحث عمدا في شعره عن اسوأ قدر ، مثل ذلك الحفار ، لكي يصور لنا اقوى تناقضات الحياة . ولذلك نجد في

٣ ـ قصيدة حفار القبور ، ص ٢٣٤ .
٤ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٣٧ .

شعره بجانب الحفار مومسا ، وهي امرأة لا تبيع جسمها عمدا او حبا في اللقاء الجنسي بل من اجل الحصول على لقمة العيش :

ومن الذي جعل النساء
دون الرجال ، فلا سبيل الى الرغيف سوى البغاء ؟ (٥)

وفي هذه المرحلة تبرز كثيرا كلمات : فقر ، جوع ، بؤس وموت . وكل هذا يناسب هموم السياب تجاه قدر الناس والمجتمع . وهكذا نجد ان الفقر ، مثلا ، كاف لتغيير وجه العرس الذي ينمو منه الحزن الخفي بدلا من الفرح . في قصيدة « عرس في القرية » يعدون العروس للزفاف ولكن مهما يعمل الفلاحون لا يكسبوا ما يشترون به الخاتم او العقد لها . وهكذا يجري « الفرح » في حزن صامت لان الناس ادركوا تماما مقدار فقرهم وكيف ان خبزهم اليومي كاللعنة ، انه شيء اكبر من العرق :

في خبزك اليومي دفء الدماء ... (٦)

وعندما يتحدث الشاعرفي بعض القصائد عن الموت وهو ينادي من قبره المناضلين الجزائريين والمغربيين وفيها لا يتعلق الموت به فقط بل ان الموت شيء قريب من الناس جميعا . وسينظم السياب الشعر عن موته فقط فيما بعد ، اذ ينتقل الى التشاؤم الفردي . على ان هذه القصائد المذكورة عناوينها ، الموجهة الى الثائرين والشهداء بدلا من الامال تنتصر فيها الالحان السوداء ـ موت وقبور . ان صيحات الكفاح نادرة جدا والشاعر يقول ان القبر مكان الراحة من هذا العالم . وعندما نصل الى تمرد السياب النادر في مثل قصيدة المخبر التي تبدا بالبيت التالي : « انا ما تشاء »... يمكننا القول ان هذا نتيجة لوحدته فقط وليس نتيجة روحه الثائرة . وهذه القصيدة تعبر في نفس الوقت عن نياته اللاحقة والتيه الاخلاقي :

.. انا الحقير
صباغ احذية الغزاة وبائع الدم والضمير
للظالمين . انا الغراب ...(٧)

وعموما هذه القصيدة كلها مهمة ، فهي كتعبير وابراز لماهية الشاعر ، كنتيجة حيرته الفكرية التي ان تتم فقط بتلك القصيدة . انها ، على كل حال ، بداية التنبؤ بانه سيكون شاعرا لعينا .
(Poète maudit)

وكشاعر لعين يصطرع السياب مع نفسه بين الوحدة والاجتماع ، ولذلك يصيح كانه على حافة المسرح : « اني عيسى يحمل صليبه في المنفى » . ولكن الصليب الذي يرمز هنا الى الحياة الشاقة ، ليس استعارة حديثة الاستعمال في الشعر العربي المعاصر . اذ ان الشاعر عبد الوهاب البياتي يبدأ ديوانه « كلمات لا تموت » بـ « الى زوجتي التي حملت معي صليب آلام من منفى الى منفى » (٨). وفي هذه المرحلة نرى ايضا اللانهائية في قصائد الشاعر ـ كل ما بقي لنا هو الدموع والانتظار . ولو اردنا محلولة احصائد قصائد هذه المرحلة لوجدنا ان كلمات الانتظار والمطر والموت والقبر اكثر استعمالا في شعره . ومن اجل ذلك يتبين لنا ان الشاعر كان لا بد له من الوصول الى التشاؤم وما يتغلب عليه من انتظار خفي .

٥ ـ قصيدة المومس العمياء ، ص ١٩٨ .

٦ ـ انشودة ... ، رسالة من المقبرة ، ص ٧٩ .

٧ ـ انشودة ... ، ص ١٤ .

٨ ـ عبد الوهاب البياتي ، كلمات لا تموت ، دار الملايين ـ بيروت ١٩٦٠ .

والسياب يلفت نظره الى داخله ليحاول ان يهرب من مشاكل المجتمع ، وفي الوقت نفسه يجد سبب خوف الانسان وتشاؤمه . ولكن الشاعر اذ يبحث عن موقفه في هذا العالم يستطيع ان يستنتج فقط : « ان بدايتي في نهايتي » (الرصافي يقول في قصيدة ما وراء القبر : « فان حياتنا ، كما قيل ، ستر والردى كاشف الستر ») . ومن ذا يموت في اشعار السياب ؟ ليس الناس فقط بل والاشياء : يموت التموز واليوم والنور ... وعنده اللون اسود دائما (« العبء الاسود» مثلا) . وموتنا ليس موتنا فقط لانه واقع دائما ، لانه سلسلة لا تتناهى ، لان الانحدار العام (شاعرنا « ايفا نوفيج » يقول : « فان كل موت فناء للدنيا ») . وتمضي الايام ، ومن ذا الذي يستطيع ان يدفن كل الاموات عندما يموت الناس باستمرار ؟ ولذلك فان الموت على كل حال المخرج الوحيد من هذه الاسئلة . ولكن الحديث عن الموت الفردي ليس غالبا في هذه الفترة من حياة الشاعر لانه سيتغلب في القصائد القادمة .

السياب والمدينة وفلسفة الوجود

وفي مجموعة القصائد التي سماها السياب « جيكور والمدينة » تبدأ المرحلة التالية في تطور شعره ، المرحلة التي يمكننا ان نسميها بمرحلة الشعر الفنائي الذاتي . وسيقدم الشاعر لنا خلالها اجمل وارق اشعاره التي ستظهر فيها احسن خصائص شعر الرومانطقية المغلفة في ثياب الفولكلور وكلمات الشاعر .

ولكن كل هذه المجموعة تتصل بالموقف الذي ذكرناه للسياب ، فهي تحمل شيئا من الالم والاحساس بذكريات الصبا ، والامال الذابلة، والانتظار غير المجدي ، والحيرة امام اسرار العالم ، والاستسلام امام حقائق الحياة الشاقة ، وفي النهاية تظهر الرغبة في العودة الى قريته وموطنه المثالي الذي لا يضاهي الحقيقة التي وجدها الشاعر في العالم البعيد عنه . وفي هذه القصائد يبدو الرثاء كشكل اساسي للتشاؤم ويشع منه اولا الالم ثم خيبة الآمال والاستسلام . وسينسى الشاعر في بعض الاحيان الالوان الخضراء بسبب الالوان السوداء وكثيرا ما ينسى حتى نهره العزيز « بويب » .

والمدينة في شعر السياب تقف امامنا مثل التنين الذي يحرق بلسانه الحار بقايا المثل العليا عن هذه الدنيا ، تقف مثل التنين الذي يلتهم ضحاياه الذين لم يستطيعوا ان يتكيفوا مع الحياة المدنية . وبقدر ما للمدينة من قوة قاهرة فانها ضعيفة مثل الناس فيها :

عمياء كالخفاش في وضح النهار ، هي المدينة ،
والليل زاد لها عماها (٩) .

ولذلك سيلتفت الشاعر ناظرا الى قريته وموطنه ـ « جيكور » ونهر بويب الصغير ، الذي يصغر دجلة ولكنه بالنسبة للشاعر رمز للقوة وللطهر ، رمز العودة الى مثل الصبا . ومن الواضح ان السياب بعد كل هذا لم يعد يطلب شيئا في المدينة لانه وجد في العودة الى صور القرية والصور الفلكلورية ما يخفف عن نفسه . وهذا يظهر خاصة عندما وجد الشاعر نفسه خارج العراق في انجلترا حيث كان يبحث عن دوائه وابلاله وعندما فكر في ان هذا العالم الخيالي الحالم وحياة قريته نجاة من مرضه وصور الحياة الواقعية . ومن ناحية اخرى ، اتاح هذا امكانية اتجاه شعوره اتجاها جديدا الى الفناء الداخلي الشخصي الذي كان الشاعر يصل به الى اعظم غاياته .

لقد نظم شعراء كثيرون قصائد في مواطنهم . وكان الشاعر الروسي الكبير « ياسينين » يتغنى بموطنه واشجار « البتولا » فيه ، والشاعر الانجليزي المشهور « فرسفرت » بنهر « دادن » والشاعر

٩ ـ انشودة ... ، قصيدة المومس ... ص ١٩٨ .

اليوغسلافي « شانتيج » بمدينته « موستار » ، وغيرهم كثيرون . ولعل السياب قد تعرف الى شعر فرد سفرت ولكننا لا نستطيع القول انه تأثر به . وذلك قبل كل شيء ، لان القصائد المتعلقة بهذا الموضوع اكثر عددا عند السياب واكبر اهمية . ومن ذلك ان السياب كان ينظر الى وطنه نظرة واقعية . انه سجل في قصائده نواحي صعبة في حياة الفلاحين : الجوع والاستغلال من قبل الشيوخ الاغنياء ، سجل سنوات الجوع والفقر غير المحدود . وفي هذا يختلف الشاعر عن الرومانسيين الاوروبيين ويتميز بشكل اكثر وضوحا ، لاننا نجد في هذه القصائد ملامح الالتزام الاجتماعي . ويربطه بالرومانطقية فقط الفكرة الاساسية لهذه المجموعة ، هي ان المدينة عدو للقرية وان الهروب من الحياة العمرانية هو المخرج الوحيد والنجاة الوحيدة لروح الانسان .

واما العودة الى القرية التي اصبحت رمز الطهارة والعلاقات الساذجة فهي في الوقت نفسه تتفق مع المواقف الدينية التي نظهر عند السياب من حين لآخر مما يناسب عودته الى الله ، لان الله كما يقول الشاعر الانجليزي « كوبر » قد خلق الطبيعة والانسان خلق المدينة . ان الرومانطيقية الاوروبية قد استفادت باحسن خصال شعر « باستورال » اما السياب فقد اعطى مرضه العضال شعره رثاء اكثر .

ان موضوع الموت والطبيعة كان يتيح الفرصة للشعراء ليوسعوا طاقتهم الباكية ويعبروا عن شعورهم (١٠) وهذان الموضوعان لهما غرض مشترك : « ان ينظر الى الحضارة القائمة كانها ظاهرة فانية غير طبيعية في الوقت نفسه والشاعر يريد الهروب من تلك الحضارة .(١١)

ويتغلب الرثاء حتى في القصيدة الاولى من هذه المجموعة ، وهي « مرثية جيكور » وفيها يتكرر كل ما تحدثنا عنه فيما سبق وما يتميز به الشعر الرومانطيقي . ويخيل الينا ان في هذه المجموعة صورا متعددة متشابهة في صميمها : هي تموز في القرية والرؤيا في الطبيعة والمدينة التي لا تظهر وكرا للدعارة والقمار ، وكرا للفساد كله وسجنا للروح والجسد . ومن أجل ذلك كله لا بد من الرجوع الى « جيكور » ولكن :

لن اخرج فيها من سجني
في ليل الطين الممدود .
لن ينبض قلبي كاللحن
في الاوتار
ان يخفق فيه سوى الدود .(١٢)

وفي الابيات القادمة يواصل الشاعر شكه ، وهو الشوكة التي تخزه باستمرار :

لا شيء سوى العدم العدم ،
والموت هو الموت الباكي .
. . . . . .
والقبلة برعمة القتل
والغيمة رمل منثور
يا جيكور ؟ (١٣)

لقد حاصرته المدينة من جميع نواحيها ، تجعل جبالا من الطين التي تعض قلبه . حقا هذا هو الموت الذي يشبه موت « بروميتيه » . ولكن كانت النسور تنقر كبد « بروميتيه » والجبال تعض قلب السياب . في هذه الظروف نلتقي بموقف السياب المعروف من قبل ، وهو ان المقاومة غير مفيدة ، وانه لا بد من التحمل . وكذلك كان « بروميتيه » مقيدا وكان السياب من جهته ضعيفا وخائب الامل . والشاعر بذاته يعترف بضعفه :

... لا مخلب للصراع ...
ولا قبضة لابتعاث الحياة من الطين ..(١٤)

وكلمة الطين هنا تحمل معنى الموت . وعموما يستعمل السياب كثيرا هذا الرمز الذي يعود في اصله ، حسب رأينا ، الى الشعر الكلاسيكي الفارسي كما نرى عند عمر الخيام وسعدي وآخرين . ومن الممكن ان يكون هذا الشعر الفارسي قد نقله من شعر الصين القديم .

وفي هذه المجموعة يجد الشاعر نفسه كثيرا امام الاسئلة ذات الاهمية بالنسبة للوجود : خلق الدنيا والانسان ، والعلاقة بين الموت والحياة وامكان اعادة الحياة الخ . وهذه الاسئلة لا تعذب الشعراء فقط ولكنهم من جانبهم تناولوا بها ، عن وعي ، بعض الالغاز والاوهام دون البحث عن الحل الحقيقي . الا اننا بجانب ذلك يمكننا القول ان هذا الموضوع كان يتيح الفرصة لبعض الشعراء لكي يعبروا عن فلسفتهم وافكارهم وهذا يؤدي الى اصطدام الشاعر بالعالم الخارجي وهذا الصدام يؤدي بدوره الى العداء الخفي والسري للواقع الحالي والى الاستسلام والتشاؤم ايضا . ان فكرة « ياسبرس » بان الوجود صدام باعمق الحقائق قد تكون فكرة واحدة موصلة لعالم الشعر هذا . وهذا الشعر بالاضافة الى الموضوع المذكور يختص برموز محددة ، ويبين كيف يفرض معنى الوجود على الشاعر سؤالا لا جواب له ، والمعروف ان الشعراء كثيرا ما يستعملون كلمة « البحث » . والسياب من جانبه يفعل هذا :

ابحث في الآفاق عن كوكب
عن مولد للروح تحت السماء
عن منبع يروي لهيب الظماء
عن منزل للسائح المتعب .(١٥)

ومن الملاحظ ايضا ان الشعراء يبحثون عادة عن جواب خارج الانسان ، وان نظرهم يلتفت الى الطبيعة او الآلهة او غيرهما . وفي الابيات المذكورة يوجه السياب نظره الى النجوم التي تتنبه اليها عيون الناس غابر الزمن . ولهذا الالتفات الى النجوم ، كانها مسؤولة عن وجودنا ، جذور في المجوسية الشرقية وفي علم النجوم الهندي ونجد ذلك عند السياب ، على كل حال ، من تأثير الفيلسوف والعلامة المشهور الكندي الذي افترض ان كواكب السماء والنجوم موضوعة بهذه الطريقة لكي تؤثر بمواقفها على الزوال والخلق .(١٦)

ان الوجود ـ ك « طاو » عند الصينيين ـ اناء خال « استعماله غير محدود » .(١٧) وكيف يستطيع الشاعر أن يحل تناقضات الحياة أليس ذلك من عمل « سيزيف » ؟ ولكن فكرة « بروتاغورا » ان الانسان مقياس كل الامور فرضت على الشعراء واجب توضيح الحقيقة وبحث سعادة الانسان . ونحن نجد كثيرا من الشعراء قد وجدوا انفسهم في هذا امام السدود العالية وبدلا من الحل بقي لهم الاستسلام . ولذلك نستطيع ان نقول ان بحث سعادة الانسان وسر وجوده هو مسألة قديمة قدم التشاؤم عند الشعراء كاسلوب . هل من اللازم عندما نتحدث في ذلك ان نذكر مؤلف « نصائح آمونخات الثالث لابنه وولي عهده » ؟

وعندما نذكر كل ذلك أنسمح لانفسنا ان ننسى اسماء الشعراء الذين كانوا يؤثرون على شخصية السياب الذي اعترف من جانبه

١٠ ـ تاريخ الادب الانكليزي ، الجزء الاول ، بلغراد ١٩٥٠ ، ص ٤٤٥ .
١١ ـ نفس المصدر ، ص ٤٤٥ .
١٢ ـ انشودة ... ، ص ١٠١ .
١٣ ـ انشودة ... ، ص ١٠٢ .
١٤ ـ انشودة ...، ص ١٠٧ .
١٥ ـ انشودة ، ص ١٠٥ .
١٦ ـ غريغوريان ، فلسفة القرون الوسطى عند الشعوب في الشرق الاوسط ، موسكو ـ ١٩٦٦ .
١٧ ـ لاوتسه ، كونفجيه ، جون نسه ، المختارات ، بلغراد ـ ١٩٦٣ ، ص ٣٤ .

بتأثير « شلي » و« كيتس » والشابي (١٨) ؟ ويمكننا القول ان هذا القرن خاصة غني في الادب العربي بهؤلاء الشعراء الذين يشبههم السياب في غنائه وبكائه عبر بؤسه على كل كآبة يحس بها الانسان . والحقيقة انه في عصر الفن والتكنيك هذا كان المجتمع العربي يتأخر ، ولكن اشتعل النشاط خاصة في ارواح شعراء الوطن العربي الذين كانوا يشعرون بهذه الحقيقة بحواسهم كلها . والشابي ثم الهمشري وغيرهما من ادباء العرب لم يكونوا صدى الظروف المعينة فقط ، بل انهم حملوا في انفسهم بؤسهم الذاتي . وهذا كان ايضا مصير السياب لان مرضه قد اثر تأثيرا هاما على نفسية الشاعر وروحه وبنيته ، وعلى كل حال فان التعرف الدقيق بصورته الباتوغرافية ـ لو عرفناها ـ قد يعطي لنا ابعادا لفهم شعر السياب بصورة اوسع . اننا نعرف ان شخصية السياب كانت عجيبة ومتغايرة الافكار والمواقف ، وان السياب كان انسانا غير مرتاح . انه كان من انصار الثورة ولكن من العجب لم يعرف بنفسه اية ثورة . وبالعكس بين الشاعر نفسه بكلمات : « انا لا ملتزم » (١٩) من الواضح ان هذه الكلمات ليست نتيجة تفكير الشاعر فقط بل انها نتيجة خصال شخصية السياب ، ومن ناحية اخرى تؤكد لنا المعلومات عن حياته القصيرة ان طفولته قد لعبت دورا هاما في تشكيل شخصيته الشعرية .

وكذلك موت امه الباكر وزواج ابيه من جديد ، الذي لم يرض به السياب قد ساعدا على ان يحتفظ الشاعر باحترام ومحبة خاصة تجاه امه . وعموما الشاعر يتذكر امه مرات كثيرة . وبجانب كل ذلك لا يمكن ان نهمل حقيقة ان السياب كان رجلا متقلب الآراء والاحاسيس، ومن ثم علينا ان لا ننسى نشأته في الفقر الذي كان السياب ـ حسب رأي التونجي ـ يكره المدينة من اجله . هذا ولعل السياب حاول ان يجد بديلا لحب امه في حب زوجته « اقبال » التي نظم فيها كثيرا من القصائد واتجه اليها بعدد من صيحات عديمة الجدوى .

واذا ما تحدثنا عن فلسفة السياب الملون بالتشاؤم ، نرى ان شعره يحمل ملامح من مميزات وادراكات العالم الشرقي . وقبل كل شيء يتضح لنا تأثير ابي العلاء المعري فيه والذي تحمل اشعاره ايضا شيئا من التشاؤم الكامل (٢٠) . والشك الذي ظهر عند الخيام ، بعد اعوام قليلة من موت المعري ، باننا سنغادر هذه الدنيا ولن ندرك شيئا، قد تسلط على السياب ايضا ، مما جعل السياب يبرز هذا الشك كثيرا في قصائده . ان المعري قال بصورة مثالية : « اننا نعرف ان الجسد يصير غبارا ولكنا لا نعرف ماذا يحدث بالروح »(٢١) . وهذا الفصل الافلاطوني بين الجسد والروح ، يبدو اليوم وبعد مرور سنوات كثيرة على المعري والخيام في شعر السياب الذي يتحدث كثيرا مع الاخيرين ومع نفسه عن قبره الذي يحتوي جسده فقط .

وبعد كل هذا لا يمكننا نسيان ما يحتمل من تأثير فلسفة الصوفيين على السياب . وهذه الفلسفة التي هي في اساسها رواقية وبناء على ذلك فهي متشائمة ، قد دخلت من خلال ثغرة ضيقة شعر السياب . كان المعري ينصح بان يؤدب الانسان شخصيته في صبر واعتدال . وهذا يمثل طريقة الاتصال بالعالم الخارجي التي وجدت انصارا حقيقيين بين الصوفيين ، وذلك ما يلاحظ في بعض الاحيان لدى السياب . ولا نستطيع ان نقول ان السياب يحاول ان يحرر نفسه من ذلك الصبر والاعتدال . ولكن كانت بين طاقته وارادته مسافة لم يقدر ان يقطعها وبهذا كان من الممكن ان يولد الفن كما قال الشاعر الفرنسي « فالري » (٢٢) . ولو اردنا معالجة الشعر على انه اسطورة لوصلنا الى الاستنتاج بان شعر السياب يختص باسطورة الموت . فان الهوة بين ارادة الشاعر وقواه الواقعية قد يمكن ان يعبرها الموت فقط . وهكذا يسمع الشاعر خرير « بويبه » في قصيدة « النهر والموت » ويرى الموت من جديد :

فالموت عالم غريب يفتن الصغار ،
وبابه الخفي كان فيك ، يا وبب ...(٢٣)

ان الموت حتى في ديوان الاساطير اصبح شيئا على مقربة من حياة الشاعر ، وانه بعد لا يخيفنا ، بل انه يعجبنا بحضوره . وتخطو الوحدة بجانب الموت خطوة الاخت الشقيقة :

من الذي يسمع اشعاري ؟
فان صمت الموت في داري
والليل في ناري .
من الذي يحمل عبء الصليب
في ذلك الليل الطويل الرهيب ؟
من الذي يبكي ومن يستجيب
للجائع العاري ؟(٢٤)

السياب والوحدة والاقتراب من التشاؤم الفردي

وبذلك نصل الى مسألة الوحدة عند السياب . كثيرا ما كان السياب طيلة حياته القصيرة وحيدا ، ومن هذه الوحدة ينبع الالم الذي ينمو الى التشاؤم . وعندما اضطر الشاعر الى ان يغادر العراق في سنة ١٩٥١ وانتقل الى الكويت بدأ يفكر في دهره :

الشمس اجمل في بلادي من سواها ، والظلام
ـ حتى الظلام ـ هناك اجمل .. (٢٥)

ان جميع الشعراء « اللعينين» قد كانوا وحيدين وخاصة الشعراء الذين تغلبت في اشعارهم الالحان السود . وحتى الشاعر الروسي المستبسل والمكافح ، حر الارادة ، « مایاکوفسکي » قد احس بوحدته واغترابه في هذه الدنيا فكان انينه في بيته : « اني الوحيد مثل العين الاخيرة » . وانعزال السياب بموقفه تجاه العالم الخارجي والايام الاخيرة من مرضه كانا يؤثران الى حد ما في انسحاب الشاعر من العالم الحقيقي الى الوحدة . وهذا كان شكلا فقط لاستسلام الشاعر وعدم تصميمه على مقاومة الحياة القاسية . وبهذا بقي لنا فقط الشعر الغنائي المملوء بالصيحات والآلام ، وقد اثبت لنا ذلك ان عمل الفن يعطينا دائما وابدا نتيجة واحدة « بمكننا تسميتها بالرثاء»(٢٦). ومع ان هذا الرثاء كثيرا ما ينتقل الى كيفية وطريقة يصبح معهما غاية بذاتها ، فلا بد ان نعترف بان هذا الشعر يحمل مميزات جيدة ـ هي قوة الابراز والتصوير وموسيقى الكلمات والتفكر والصور البلاستيكية واغنيات الروح . وقد القى في شعره احسن مميزات الشعر العربي والاوروبي وفي هذه الابيات نجد ذلك :

بويب .. يا بويب ،
عشرون قدمضين ، كالدهور كل عام .
واليوم ، حين يطبق الظلام

---

١٨ ـ ابو سعد ، الشعر والشعراء في العراق ، دار المعارف، بيروت ـ ١٩٥٩ ، ص ٢٤ .

١٩ ـ جبرا ابراهيم جبرا ، مجلة « حوار » ، ص ١٢٨ .

٢٠ ـ غريغوريان ، op . cit . ، ص ١١٠ .

٢١ ـ المصدر نفسه ، ص ١١٩ .

٢٢ ـ مربورغو ـ طليابو : علم الجمال المعاصر ، (ترجمة) بلغراد ١٩٦٨ ، ص ١٧٥ .

٢٣ ـ انشودة المطر ، ص ١٤٣ .

٢٤ ـ نفس الديوان ، ص ١١٠ .

٢٥ ـ نفس الديوان ، ص ١٤ .

٢٦ ـ مربورغو ـ طليابو ، ص ٤٢٦

واستقر في السرير دون ان انام
وارهف الضمير : دوحة الى السحر
مرهفة الغصون والطيور والثمر ـ
احس بالدماء والدموع ، كالمطر
ينضحهن العالم الحزين :
اجراس موتى في عروقي ترعش الرنين ..(٢٧)

ويبلغ الشاعر قمة وحدته واحزانه في المجموعة التي وضعها تحت عنوان رمزي شعوري ـ « انشودة المطر » . واما المطر دائم الهطول فهو صورة يمكننا ادراكها تماما بمجرد ان نأخذ في الاعتبار ان هذا صدر عن واحد من ابناء البادية . ولعل السياب في تاليف هذه المجموعة قد تاثر بقصيده (Still Falls the Rain) للشاعرة اديث سيتول التي تكرر فيها كذلك كلمة المطر .

في هذه المجموعة الكثيرة الاحاسيس نجد شيئا مما يمكن ان نسميه بالامل البارز من بين السحب الممطرة التي وكأنها تريد من جانبها ان تروي السياب تفاؤلا . وعلينا ادراك هذه الابيات كشيء يمكن ان يجلب الينا سعادة في هذه الدنيا ولكنا لا نعرف من اي اتجاه يأتي المطر ، واين يكون انتظارنا اياه ، امن خلال فم صياد السمك :

في كل قطرة من المطر
حمراء او صفراء من اجنة الزهر .
وكل دمعة من الجياع والعراة
وكل قطرة تراق من دم العبيد
فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد
او حلمة توردت على فم الوليد
في عالم الغد الفتي ، واهب الحياة ..
مطر ...
مطر ...
مطر ...(٢٨)

بينما هذا كله حكاية فقط ، فالحياة شيء آخر ولذلك لا بد ان يعود السياب الى التشاؤم ، لان الانسان ـ كما قال الشاعر ـ صار وحشا يتعقبه الصيادون ، وهذا الخوف من الناس ، الصيادين ، حاضر عند السياب بصورة خفية ، فمن الملاحظ انه كان خفيا في عمق شخصيته . ان لدينا انطباعا بان السياب كان يهرب طول حياته من كل ما احاط به وكان يجد فقط راحة في اشعاره وفي داخله .

* * *

وفي ديوان انشودة المطر يمكننا ان نلاحظ بعض الموضوعات التي سيستعملها السياب كثيرا فيما بعد والتي يجبان نكون متشائمة حسب جوهرها . ومن اجل ذلك اخذ الشاعر رموز اقدار عيسى والسندباد ، وهابيل وقابيل ، وايوب . بينما تكون كلمة المطر حاضرة في جزء كبير من ديوانه هذا . وذلك العطش والتطلع الى المطر لا نستطيع تفسيرهما الا بالحرص على المعرفة والادراك والفهم ، وخاصة لان كلمة المطر تظهر كذلك في دواوينه الاخرى . ومن كل الرموز هذه يتردد رمزا عيسى والسندباد . ولكنهما في الوقت نفسه رمزان للبؤس الفردي والاجتماعي . وفي ملامح السندباد نرى خاصة الوانا من التشابه مع السياب . كلاهما يبحث ويتيه ويحرص على الوصول الى العوالم المجهولة واكتشافها وبلوغ السعادة الكاملة .

٢٧ ـ انشودة المطر ، ص ١٤٣ .

٢٨ ـ انشودة المطر ، ص ١٦٥ .

ولا نتوقف هنا بصورة خاصة عند مصيبتي ايوب والسندباد ، ففي هذه المرحلة من شعر السياب يلعب دورا اكثر اهمية عيسى والالهة « عشتار » . واما رمزا السندباد وايوب فسيظهران بوضوح اكثر وسيحتلان مكانا في المرحلة القادمة التي سيسيطر فيها التشاؤم الفردي . وفي هذه المرحلة يتسلط التشاؤم الاجتماعي النابع من الحالة السياسية والاجتماعية وعيسى كان رمزا مناسبا لهذه الحالة لانه رمز الحيلة الشافة للشعوب العاملة وامل المستقبل . وفي هذه المرحلة يكون التشاؤم نتيجة الجوع والفقر ، لان الاطفال لا يعرفون « القمح والماء والمهد » ،وفي المرحلة القادمة ينبع البؤس والالم من شخصية الشاعر المريض . ويؤكد لنا هذا خاصة رمزا عيسى وعشتار. ومع ان السياب مسلم فانه نظر الى عيسى كانسان عادي بسيط موجود بين الناس في كل مكان من هذا العالم . وفي الحقيقة بقي عيسى اسطورة الفقراء والمعذبين ، حياته مثل القدر : عقوبة على عمل الخيرات ، الحياة بلا مكافأة ولكن كل هذا يعطينا الامل الخفي في الايمان . وعيسى اراد ان يقاسم الناس خيرا لكنه جنى شرا . وعيسى نتيجة عقيدة المسيحية (هل المسيحية فقط ؟) التي تريد ان تقول ان الانسان قد خلق للتعذيب فقط. وعشتار رمز الخصب والمحبة، رهذان الامران كان يرغبهما السياب منذ صباه . ولما اقترب السياب من المرحلة التالية تغيرت آراؤه وفي النهاية كان مستعدا للتضحية بعشتار نفسها ، وهكذا في قصيدة « رؤيا في عام ١٩٥٦ » نجد الآلهة عشتار مصلوبة مسمرة على شجرة . وبذلك تحطمت المحبة والخصب وجاء التشاؤم ـ التشاؤم الفردي . واما تفسير الرموز الاخرى فليس له في هذا المجال اهمية .

وهنا لا بد ان نقول كلمة في الخوف الذي يظهر كثيرا في شعر السياب . هناك مخافة من كل شيء كبر ام صغر :

فبور اخوتنا تنادينا
وتبحث عنك ايدينا
لان الخوف ملء قلوبنا ، ورياح آذار
تهز مهودنا فنخاف .(٢٩)

فاما هذه القصيدة (مدينة بلا مطر) المأخوذ منها تلك الابيات فهي مملوءة برموز غامضة ومأسوية . وهي الموجهة الى شخص فوقنا ولكن من العجيب انه بلا قوة مثل الناس . والنقد العربي يعتبرها بين القصائد الاكثر غموضا (٣٠) . ولكن فيها شيء واضح : المطر الذي ينتظر لا ينزل :

ولكن مرت الاعوام ، كثرا ما حسبناها ،
بلا مطر .. ولو قطرة
ولا زهر .. ولو زهره (٣١)

ويبقى الانتظار ، الانتظار الذي لا ينتهي . لقد لاحظت الشاعرة الممتازة نازك الملائكة ملاحظة رقيقة : انه ليس هناك لقصائد السياب نهاية حقيقية (٣٢) .وليس لقصائده الكثيرة نهاية اصيلة لانه ليس لهذه الاقدار نهاية ، وبجانب ذلك ، لم يستطع الشاعر نفسه ان يرى في احوال كثيرة حالات الحياة ونهاية الامور بسبب الاسوار العالية المتعددة .

وهذه القصائد ـ كما يرى ـ مثل موسيقى « روندو » ، مثل

٢٩ ـ انشودة المطر ، ص ١٧٥ .

٣٠ ـ انظر التونجي ... ، ص ١٨١.

٣١ ـ انشودة المطر ، ص ١٧٤ .

٣٢ ـ الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر، مكتبة النهضة ـ بغداد ١٩٦٥ ، ص ٣١ و ٣٢ .

Apregiatto ، وتقليب للموضوع الوحيد : الالم . ولذلك من الواضح بان هذه القصائد لا تستطيع ان تنتهي . انها لا تستطيع ان تنتهي ايضا لان شاعرها يستسلم امام الحياة ولانه لم يجد مكانه في هذه الدنيا ولان الانتهاء « يتأسس دائما على شيء قريب من التفاؤل (٣٣). والالم والبؤس والظلم اعطى شعر السياب نبرة فردية كتاكيد على انه من « الجمال لا ينبع الفن وان الفن يميل الى القبح » ٣٤) .ومن كل ما يحيطنا وما يسعدنا ويؤلمنا تبقى فكرة السياب الرهيبة سؤالا يسوده منطق القدر وفي نفس الوقت تتصدره دائما « لماذا » :

والیوم ؟ ما نفعل ؟

نزرع ام نقتل ؟(٣٥)

وفي استخلاصنا لهذه النتائج من هذا الشعر المدعو بالشعر الالتزامي نسببا يمكننا القول بان التشاؤم الظاهر فيه ليس تشاؤما ذاتيا (فرديا) بل هو تشاؤم اجتماعي . لان كل هذه الموضوعات الحزينة ليست متعلقة بحياة السياب فقط ، انها وسيلة لوصف مأساة الناس جميعا لان لقدر ابطال شعره سمة اجتماعية . وسيتغلب التشاؤم الفردي في قصائد دواوينه القادمة . (*)

رادي بوجوفيج

---

٣٣ ـ اندرس ، كافكا » ـ ما قاله وما عليه ، الترجمة الى العربية، سرايفو ١٩٥٥ ، ص ٢٠

٣٤ ـ مربورغو ـ طليابو ، ص ٤٢٢ .

٣٥ ـ انشودة المطر ، ص ١٣٨ .

* ـ فصل من اطروحته بهذا العنوان .

اللامنتمي

دراسة تحليلية لأمراض البشر النفسية في القرن العشرين

و

ما بعد اللامنتمي

«فلسفة المستقبل»

أشهر واعمق كتابين للكاتب الانكليزي المشهور

كولن ويلسون

صدرا في طبعتين جديدتين انيقتين

منشورات دار الآداب